الصمت البليغ لخالد رشيد

القدس: ١٧-٤-٢٠١٤ ناقشت ندوة اليوم السابع الثقافية في المسرح الوطني الفلسطيني في االقدس كتاب"الصمت البليغ...مذكرات أخرس في زنازين الاحتلال" لخالد رشيد الزبدة الذي صدر عام ٢٠١٣ عن وزارة الثقافة الفلسطينية في مقرها المؤقت في مدينة البيرة. ويقع الكتاب الذي صمم غلافه الفنان احمد صبيح في ٢٥٧ صفحة من الحجم المتوسط. ويتمحور موضوع الكتاب حول التجربة النضالية والاعتقالية للكاتب.

بدأ النقاش إبراهيم جوهر فقال:

يستعرض فيه الكاتب سيرة اعتقاله وبداية دخوله عائدا إلى أرض الوطن وصموده في التحقيق وابتداعه فكرة (الأخرس) التي حيرت المحققين وكيف انتهى تنفيذ الفكرة بعد التعذيب بالصعق الكهربائي.

يقدّم الكتاب معلومات توثيقية لبدايات الاحتلال وأساليب الاعتقال والتحقيق والمواجهات مع المعتقلين وبداية تنظيم حياة المعتقل ، وينقل جانبا من وحشية التحقيق وظلم المحكمة.

جاءت سيرة المعتقل (خالد الزبدة) هنا بأسلوب حكائي بسيط همّه تقديم المعلومة وسرد الحكاية بعيدا عن الالتفات للجانب الفني وإن كان أحيانا يستعين بأسلوب المقارنة وهو يستذكر ما كان حاله قبل وقوعه في الأسر.

يخرج القارئ لهذه السيرة الاعتقالية برسالة ملخصها (الصمود) الذي يقهر المحقق ويعني الإرادة التي يجب أن يكون عليها المعتقل، ويقف القارئ على الانتقاد المباشر الذي وجهه الكاتب للقيادة السياسية البعيدة عن الميدان التي حمّلها مسؤولية اعتقاله

ومجموعته.

بهذه السيرة تزداد حصيلة الكتابات الاعتقالية التي تنتظر دراسة وافية تتناول التجربة الأدبية الاعتقالية من جوانبها كافة.

وقال عبدالله دعيس:

هذا الكتاب هو سيرة ذاتية تؤرخ لجزء مهم من حياة الشعب الفلسطيني التي عاشها الكاتب، وعانى أسوأ ما فيها، وعاين بطولات أناس ضحوا بحيواتهم، شهداء دفنوا تحت أديمها أو أسرى دفنوا في أحشائها، في غياهب سجون الظلم والذل تحت سياط العدو. فالكاتب يسجل تجاربه وذكرياته وما رآه من أحداث في الفترة التي تلت حرب ١٩٦٧ حيث شهد هزيمة الدول العربية مجتمعة، أمام كيان مسخ فاقد لأي معنى من معاني الإنسانية. لقد سقطت الأرض، وسقطت معها أحلام الكثيرين وسقطت معها أوهام أكبر – أوهام تحرير لا يستند إلى أساس متين. وتكشف للعيان عورات الكثيرين الذين ضللوا الأمة بخطابات وشعارات رنانة غطت على الأسلحة الفاسدة التي استخدمت في قتال العدو الذي كان قد أعد العدة، ووضع الخطة ونفذها. وسقطت باقي فلسطين، ووقف الناس أمام هذه الحقيقة مشدوهين، فمن مبرر لهزيمة العرب محتفيا ببقاء أنظمتهم غير معترف بخذلانها له إلى من تسلل اليأس إلى نفسه وآثر السلامة بعيدا عن ميادين الحقيقة، إلى من أدرك حقيقة الأمر ونهض بعد كبوة محاولا أن يعيد الكرة وينهك العدو فشرع سيف المقاومة في وجهه.

إن ما سرده الكاتب يجعلنا نحس بالواقع الذي مضى وكأنه حقيقة نراها الآن ونشعر بها وكأنها ماثلة أمامنا. كيف لا، والاحتلال ما زال هو الاحتلال والأسر ما زال كابوسا يلاحق الآلاف من أبناء شعبنا، والأنظمة العربية ما زالت مهزومة مهزوزة، وإن كانت انكشفت عوراتها ولم يعد ينطلي على أحد نفاقها وذلها وخنوعها وتآمرها، إلا أنها ما زالت تطعن المقاومين في ظهورهم، وما زال السياسيون الذين يعتلون المكاتب ومنصات الإعلام يجرون المقاتل الذي يعتلي الجبال إلى بطن المدينة، يجردونه من سلاحه ويجعلونه هدفا سهلا للعدو، تماما كما حصل مع خالد الزبدة ورفاقه الذين خاضوا الصعاب ليصلوا إلى أرض الوطن بأسلحتهم وعتادهم مصممين وقادرين على ضرب العدو وإيجاعه، ولم

يستطع العدو النيل منهم. ولكن رفاقهم، بحسن نية أو سوئها، جعلوهم لقمة سائغة وهدفا سهلا لعدوهم وأجهضوا مقاومة كان يمكن لها أن تؤرق العدو وتهدد كيانه.

وكما أن المؤلف يسطر قصص البطولة والفداء في صفحات التاريخ، لأناس يستحقون أن يكونوا عناوين لها وشارة عليها، فإنه أيضا يظهر الصورة الحقيقية للإنسان، ليس فقط في تضحيته وإنما في ضعفه وقصوره. فمقابل المناضل البطل الذي لا تستطيع كل آلة العدو وأساليب تعذيبه وترغيبه أن تنتزع منه بنت شفة تضع غيره في الأكبال أو تجهض عملا يخطط له لضرب العدو، فإننا نجد من يضعف أمام أدنى محاولة ضغط أو شيء يسير من الترغيب أو من متاع الدنيا حتى لو كان نصف علبة سجائر من النوع الرخيص. إن هذه الظاهرة موجودة في كل زمان وفي كل مكان وليست خاصة بشعب دون آخر، لذلك فإن من يتصدى للعمل الجهادي عليه أن يحسن اختيار الرجال، وأن يأخذ بعين الاعتبار الضعف البشري الذي قد يسيطر على أي إنسان في مواجهة الترهيب والترغيب.

هذا أحد الدروس الذي يمكن أن نتعلمه من هذا النص. كما أن الأمل في التحرير والحرية يجب أن لا يخبو في نفوسنا مهما كانت حجم الهزائم والتضحيات، فقد تلت نكسة ١٩٦٧ نكبات ونكسات، وتخاذل الكثيرون واختاروا الطريق السهل مبتعدين عن آمال أمتهم وتطلعات شعبهم. لكن أرحام الأمهات الفلسطينيات ما زالت تنجب رجالا سيكونون مركب هذه الأمة إلى التحرير والسؤدد بإذن الله. وكما قال الكاتب:"إننا لا نقاتل لنموت، وإنما نقاتل لننتصر ولندحر الاحتلال عن أرضنا."

obeikandl.com